تطوّر رؤية الإسلام في اللاهوت البروتستانتي في القرن العشرين*

(كلاوس هوك)

مراجعة رضوان السيد

I

هذا العمل في الأصل أطروحة للحصول على درجة الأستاذية في اللاهوت، أو في تاريخ اللاهوت. والكاتب نفسه عالمٌ لاهوتيٌّ بروتستانتي يعرض لتطور رؤية الإسلام داخل اللاهوت البروتستانتي في القرن العشرين؛ باعتبار ذلك مقياساً لمسارات الرؤى المسيحية في هذا القرن تجاه الأديان والثقافات غير الأوروبية وغير المسيحية. والحقّ أنّ بحوث «الصورة» أي صور الأديان والثقافات والحضارات لدى الأوروبيين عبر القرون؛ ازدهرت في العقود الثلاثة الأخيرة. وفيما يتصل بمجالنا؛ فإنّ الاستشراق الأوروبي، وأدب الرحلة الأوروبي لقيا اهتماماً كبيراً. وقد دُرس هذان الفنان غالباً باعتبارهما يمثّلان صورة المستعمر أو المهيمن عن المهيْمَن عليه أو المستعمَر. على أنه كان هناك جَدَلٌ كثيرٌ حول موقع المستشرق في المجتمعات الأوروبية والثقافة الغربية، ودوره فيها جميعاً؛ أو بعبارة أخرى في مدى تمثيل المستشرق أو رؤيته للثقافة الغربية، والمجتمعات الغربية؛ وبالتالي الصورة الغربية عن الشرق والإسلام. إذ إنّ كثيراً من المستشرقين والرحّالة كانوا ذوي نزعة فردية رومانسية غلاّبة إن تيسّر وَضْعُها ضمن التطور الثقافي الأوروبي؛ فإنه يصعُبُ القول إنها تعكس فعلاً وجهات نظر واستراتيجيات فئات اجتماعية وسياسية أوروبية وغربية فعالة.

(*) KLAUS HOCK: DER ISLAM IM SPIEGEL WESTLICHER THEOLOGIE 1992.

وتمضي وجهة النظر هذه قائلةً إنّ اللاهوتيين يمثّلون الرؤى الغربية تجاه الإسلام، وسائر الأديان والثقافات غير الأوروبية بشكلٍ أفضل ومن هنا كانت دراسة رؤاهم عنّا ضمن منظوماتهم اللاهوتية أجدى. فهم في الأصل يمثّلون وجوهاً من الوعي العميق للثقافة الغربية بذاتها ودورها، وموقعها في العالم ومنه. وقِدْماً قال ابن تيمية (661 ـ 728هـ) فيما أحسبُ: ما تنصّرت الروم؛ ولكنّ النصرانية تروّمت! فقد احتلّ الدين كلّ منافذ الحياة بأوروبا العصور الوسطى؛ شأنه في ذلك شأن الإسلام في عصوره الذهبية. لكنّ المسيحية الواردة إلى أوروبا كانت قد تهلينَتْ ولذلك أمكنها الدخول. ثم طوّعها اللاهوتيون اللاتين والأنجلوسكسون تدريجياً ساحبين منها كلّ عناصرها السامية تقريباً. ويبدو ذلك جلياً في الانقسام الكَنَسي النهائي بين مسيحية الشرق، ومسيحية الغرب في القرن الحادي عشر. وكأنّ ذلك لم يكف فجاءت البروتستانتية في القرنين السادس عشر والسابع عشر لتمثّل الروح الأوروبي والغربي الخالص في المجال الديني. لكنْ يمكنُ هنا القول إنّ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شهدا انسحاباً تدريجياً للكنيسة من الثقافة المدنية، والحياة العامة بجوانبها الفكرية والاقتصادية والسياسية. إنما هذا وإن صحّ فإنه لا يتجاوز الجوانب العلنية والواعية دون الحياة الأخلاقية، وعالم القيم العميقة واللاواعية. فالوعي الأوروبي الذي كوّنته عبر قرون متطاولة عناصر ثقافيةٌ وأخلاقية معقدةٌ أشدّ التعقيد؛ لم تُنْهه العلمانية إنهاءً كاملاً كما يزعم كثيرون بيننا اليوم. وسوف نرى من استعراض آراء اللاهوتيين في الإسلام في القرن العشرين؛ مشتركاتٍ كثيرة بين المستشرقين وعلماء اللاهوت من جهة ـ كما بين علماء اللاهوت والرؤى الإعلامية الغربية لظواهر الإسلام المعاصر. فالتواصل الثقافي داخل الحضارة الواحدة أمرٌ لا يمكن الجدلُ حوله. كما أنّ اختلاط «العقلاني» بالموروث وغير العقلاني ضمن الثقافات صار من المسلّمات. وتبقى ملاحظةٌ أخيرة قبل الانصراف لاستعراض دراسة كلاوس هوك؛ وهي أنّ أوائل المستشرقين كانوا في الغالب من علماء اللاهوت؛ كما أنّ لاهوتيي القرن العشرين أفادوا كثيراً من بحوث المستشرقين ومعلوماتهم عن الإسلام. فإذا كان المستشرقون جانبيين أو هامشيين في الثقافة والمجتمع الأوروبيين؛ فإنهم

لم يكونوا كذلك بالنسبة لعلماء اللاهوت الساعين لتكوين رؤية عن الإسلام، ووضعه ضمن منظوماتهم عن أديان العالم وثقافاته.

II

يبدأُ المؤلّف **كلاوس هوك** بعرض الظروف أو البيئات التاريخية التي بدأ فيها ظهور الإسلام ضمن منظومات اللاهوتيين؛ فيذكر نشوء التبشير البروتستانتي والكاثوليكي ومأسسته ببلدان الشرق الإسلامي في القرن التاسع عشر. ويقول إنّ «تبشير المحمديين» كما سمّاه اللاهوتيون استفاد من الظروف الملائمة التي مهّدها له الاستعمار الأوروبي لأكثر بلدان العالم الإسلامي. هذا هو الظرف التاريخي. أمّا التسويغ اللاهوتي لذلك فقد تكوَّن من **مقولتين اثنتين**: انحصار الحقيقة الدينية في المسيحية، وإطلاقية تلك الحقيقة ونهائيتها، وضرورة تبشير العالم بها من أجل الخلاص. **والثانية**: وجود «بقايا حقائق» في الإسلام ولدى المسلمين منبعها المسيحية في الأساس؛ ويمكن بالتالي الاستناد إليها في عملية تبشير المسلمين لهدايتهم إلى الحقيقة الكاملة. فإذا تأمّلْنا هاتين المقولتين وجدنا أنهما مستمدتان من رؤى الإسلام لدى الأوروبيين في العصور الوسطى. وقد سبق لي أنْ لاحظتُ استمرارية رؤى العصور الوسطى لدى اللاهوتيين والمبشّرين المُحْدَثين في تقديمي على كتاب: «رؤية الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى» لريتشارد سوذرن؛ الذي نشرتُهُ عام 1983 بالعربية. ويلاحظ **هوك** تركيز لاهوتيي مطالع القرن العشرين على مقولتين أساسيتين في الإسلام هما: **الألوهية**، والنبوة. ويتوقع المرءُ (كما يقول **هوك**) أن يكتشف اللاهوتيون من خلال الوحدانية الإسلامية، ونظرية النبوة المُشابهة لتلك التي لديهم مدى قُرب الإسلام منهم، وإمكان الاعتراف به كدين حقيقيّ كما كانت اليهودية؛ لكنّ النتيجة لديهم دائماً غير ذلك فهم يقولون: إنّ «بقايا الحقائق» في الإسلام دليلٌ على كيفية استخدام «أنصاف الحقائق» من أجل التزييف ومكابرة الحقيقة! فالإسلام هو نموذجٌ لديهم **للحقيقة المقلوبة**؛ وأمائرها المشيرة للمسيح الدجّال حسب التصور المسيحي إذ إنه يسلك نفس المسلك في إضلال الناس. ويذكر **هوك** أنّ المرجع النظري لهذه الرؤية

للإسلام كان ما سُمي باللاهوت الليبرالي الذي يتكوّن من مجموعة من القيم والتصورات الأخلاقية المأخوذة من التطور الثقافي الأوروبي، ومقابلتها بما يعتقد أنه مُناقِضُها في عالم الإسلام. كما يلاحظ أنّ اللاهوتيين ـ بعكس بعض المستشرقين مطالع القرن العشرين ـ لا يحاولون فهم رؤية المسلمين أنفسهم لكبرى المسائل في دينهم؛ بل يقرّرون ما يعتقدون هم أنه الفهمُ الصحيحُ للإسلام. ومن ضمن هذه الروحية فهم زويمر Zwemer المبشّر والمستشرق المعروف الإسلام، وطالب بشن حملةٍ صليبيةٍ عليه بـ «سيف الروح»!

وجاءت الحرب العالمية الأولى ببعض التغييرات الضئيلة في التفاصيل فقط. فقد تراجعت ثقة الأوروبيين بأنفسهم، ومهماتهم الحضارية العالمية. كما أنّ الديانات الأخرى ـ ومن بينها الإسلام ـ لم تظهر استعداداً للانهيار أو الزوال كما اعتقدوا في القرن التاسع عشر. ولذلك كان التغيير في الأسلوب، وطرائق التبشير؛ دون تعديلات جوهرية. ويدلُّ على ذلك إصرار أكثر اللاهوتيين على «تفرد» المسيحية حتى في المسائل التي تتشابه فيها مع الإسلام. وكان اللاهوتي المعروف سايمون مضياً مع اللاهوت الليبرالي لحقبة ما قبل الحرب؛ قد قال إنّ «شخصية المسيح» هي المثال الأعلى للأخلاقية الدينية وعليها «ينبغي أن نقيس محمداً وغيره» فيكون القياس لغير صالح المقيسين. لكنّ مفهومه للشخصية مأخوذ من مفاهيم القرن التاسع عشر للبطولة الفردية في التاريخ، وليس من الفكر المسيحي التاريخي. على أنّ المؤلف يلحظ بداية التمايُز في رؤية الإسلام بين اللاهوتيين الأنجلوسكسون، ولاهوتيي وسط القارة. فاللاهوتيون الإنجليز بدأوا يظهرون تفهماً أكثر ليس للإسلام وحده بل لسائر الأديان غير الأوروبية؛ بينما ظلّ اللاهوتيون الألمان ـ على سبيل المثال ـ متمسكين بالمواقف القديمة بشدّة.

ويأتي تطورٌ ملحوظٌ في الموقف من الإسلام في الثلاثينات. وذلك لظروفٍ عدةٍ منها التقدم الذي أحرزه الاستشراق، والنصوص المهمة، والرؤى الشاملة التي طرحها بحيث لم يعد تجاهل كلّ ذلك من جانب علماء اللاهوت ممكناً. ومنها صعود لاهوت كارل بارت، واللاهوت الجدلي؛ وهما لاهوتان يحدّدان مواصفات

للظاهرة الدينية تُطبّقُ على كلّ الأديان مع استمرار المسيحية في التمتع بمركز خاصّ. وفي هذه المرحلة بالذات ازداد الافتراق بين اللاهوتيين **الأنجلوسكسون**، و**القاريين**. فقد ركّز الأنجلوسكسون على قضية الحوار مع الديانات الأخرى. وجعلوا «الاستمرارية» الدينية مقياساً لجدية العقائد ومناقشتها. بينما ظلّ القاريون ينكرون على الإسلام استمراريته، ويضعون الحوار في مرتبةٍ دنيا. فاستناداً إلى لاهوت **كارل بارت**، ومقياس الاستمرارية؛ تحدّث **هـ. كرامر** عمّا سمّاه الواقعية الإنجيلية. والواقعية الإنجيلية التي نظر بمنظارها إلى الإسلام كنظام للفكر والحياة؛ أوصلته إلى أنّ الإسلام يشجّع فكرة «الخلاص الفردي» القائمة على الانتماء إلى **الأمة**؛ وبذلك يبتعد تماماً عن فكرة المسيحية الرئيسية القائلة بالإنقاذ الإلهي عن طريق افتداء المسيح للبشرية. ويعني هذا أنّ الإسلام عملٌ إنسانيّ بحت يناقض المسيحية الموحاة القائمة على «كلمة الله». والفكرة نفسها، أي «كلمة الله باعتبارها الحقيقة الوحيدة» بمواجهة «الإسلام كدينٍ إنساني» يتبنّاها اللاهوتيُّ المعروف **كَلَرْهَالْسْ** Kellerhals.

وظلّ الأمر على هذا النحو حتى أواخر الخمسينات حين ظهرت فكرةُ «لاهوت الأديان» التي تُعتبر تطويراً للاهوت كارل بارت. وفي ظلّ هذه الفكرة تراجعت التمايزات بين الأنجلوسكسون والقاريين. وبرزت فكرة **الحوار** في قلب اللاهوت. وجرى الحكم على المنظومات الدينية باعتبارها منظومات كاملةً تستحقُّ الاعتبار والنقاش. ويمكن القولُ إنّ ذلك يعودُ لتطور رؤية الغرب النقدية لنفسه ودوره من جهة، وازدهار الاستشراق المستقل عن اللاهوت، والمستعين بالعلوم الاجتماعية، شأنه في ذلك شأن اللاهوت نفسه. وهكذا جرى الاتجاه للاعتراف بالإسلام كدين له حقيقته المعتبرة، وله منطقه الداخليّ الذي ينبغي تأمله من خلاله، وليس من خلال فهم الآخرين له. على أنّ هذا التقدّم في التخلُّص من الآراء المسبقة لم يَعْنِ التجدد الكامل فقد بقي هناك لاهوتيون كبار من مثل **بومان** لم يجدوا حرجاً في تأمُّل الإسلام من خلال منظوماتهم الخاصّة، ومقاييسهم اللاهوتية الموروثة. يضع **بومان** فكرة **الخلاص** مقياساً لحقيقية الدين أو جديته. ولأنّ الإسلام لا يقدّم جواباً شافياً

ـ في نظره ـ في هذا الشأن؛ فإن إله محمد (ص) رغم وحدانيته المتعالية؛ يبقى صنماً والناس عرضةٌ دائماً لتحكُّمه كما في اليهودية. ويعلّل هذا ـ من وجهة نظر **بومان** ـ افتقار المسلمين إلى الإحساس العميق بالخطيئة الأصلية، وبإمكان الخلاص بل ضرورته. ويقف **كينيث** كراغ الذي عرف المسلمين وعالم الإسلام عن كثب، موقفاً مناقضاً لموقف **بومان**. فهناك تجربة **الإيمان** التي تجمع المسيحيين والمسلمين. ثم يمضي قُدُماً في قراءة المشتركات بين الدينين بالتفصيل مُحاولاً في مقارناته عرض وجهة نظر المسلمين أنفسهم وليس فهم اللاهوتيين أو المستشرقين للإسلام. ويلاحظ **هوك** أنّ كراغ البشوش مع الإسلام انطلاقاً من اللاهوت الأنجلوسكسوني يقعُ على أيّ حال في مطبّ «تمسيح الإسلام» عن طريق التأكيد على العناصر التي يشبه فيها الإسلام المسيحية بدلاً من عرض الإسلام كمنظومة متكاملة ومستقلة. وفي اتجاه الفهم المتعاطف يمضي أيضاً **ولفريد كانتويل سميث** الذي يركّز على موضوعة«الإيمان الفردي»، والتجربة **الفردية**، التي يتفق فيها الدينان. ويرى ما عدا ذلك ظواهر جزئية أنتجها التطور التاريخي.

إنّ هذا العرض الموجز لتطورات الخمسينات والستينات يعني من ضمن ما يعنيه اختفاء الموقف الموحّد أو شبه الموحّد من الإسلام بل وسائر الديانات الأخرى. ولذا فلا يمكن الحديث عن مدارس لاهوتية مختلفة في الموقفِ من الإسلام؛ بل هناك مواقف فرديةٌ كثيرةٌ يتفاوت تأثرها بالماضيين القريب والبعيد. كما يتفاوتُ فهمها للإسلامين القديم والمُعاصر؛ مع حضور الاستعداد للفهم والحوار في كلّ الأحوال. بيد أنّ هوك يلاحظُ من جديد أنّ المواقف الإيجابية من الإسلام لا تنبع غالباً من المنظومة اللاهوتية التي يعتنقها الكاتب اللاهوتي؛ بل من مواقف ثقافية وسياسية وإنسانية عامة متأثرة بظروف العصر وتطوراته؛ من مثل الانفتاح وضرورة الحوار بدلاً من الصراع، ومن مثل الدعوة إلى التسامح، والالتفاف حول قيم إنسانية عامة وشاملة. والمؤلّف لا يقلّلُ من أهمية هذه الدعوات. لكنه يرى ضرورة ظهور موقف لاهوتيٍّ أو من داخل اللاهوت، لصالح الإسلام كديانة عالمية. ويضربُ مثلاً على «تخلف» اللاهوت عندما يتعلّق الأمر بتسويغٍ لاهوتيٍّ للتقارب مع

الإسلام؛ بدعوات أولئك الذين يريدون التقارب مع المسلمين من أجل «تحقيق حاكمية الله على الأرض». أو من أجل أنّ الإسلام يتضمن اعترافاً مبدئياً بالمسيح. أو من أجل أن المسيح طلب إلى المؤمنين به أن يبحثوا عن المشتركات بين البشر.

موقف كلاوس هوك من رؤى اللاهوت البروتستانتي للإسلام في القرن العشرين؛ موقفٌ شديد النقدية. وفي الواقع فإنه يعرضُ علينا صورةً لتطوره البطيء والمشكل تختلف عن المواقف السياسية والاجتماعية لكثيرٍ من الكنائس البروتستانتية من قضايا العالم الثالث، والعالم الإسلامي بالذات. إذ تلك المواقف متقدمة أكثر بكثير في موقفها من «المسلمين» من مواقف اللاهوتيين البروتستانت من «الإسلام». ويُثْبت هذا أنّ اللاهوت البروتستانتي؛ لأنه لاهوت؛ لا يستطيع أن «يخرج من جلده» أو أنه لم يستطع تطوير مقاييس ومبادىء داخلية للقاء مع الآخرين.

وهناك أخيراً عنصرٌ في الموقف لم يتعرض له هوك لأنه لم يكن بداخل موضوعه. وأعني به: الموقف الكاثوليكي من الإسلام. فقد ظلّ موقف اللاهوتيين الكاثوليك من الإسلام مشابهاً لموقف اللاهوتيين البروتستانت لمدةٍ طويلة. أمّا الكنيسة الكاثوليكية فقد صمتت طويلاً بحيث لم يكن لها في الخمسينات موقفٌ معروف. ثم كان «المجمع الفاتيكاني الثاني» (1962 ـ 1965) الذي عرض رؤيةً متقدمةً ومتفهمةً للإسلام لم يبلغها اللاهوت البروتستانتي من الناحية اللاهوتية حتى اليوم. ومع أنّ البابوية تراجعت عملياً في السبعينات عن ذلك؛ لكنّ ذلك الإعلان النظري يظلُّ شديد الأهمية في التدليل على إمكانية قيام رؤيةٍ متفهمةٍ للإسلام من موقعٍ لاهوتي. ولا شكّ أنّ هذا الموقف الكاثوليكي كان وراء دعوة كلاوس هوك إلى لاهوتٍ بروتستانتيٍّ مُشابه.